المحاضرة08:الخصائص الفنية للقصة.

تتوفر القصة على جملة من العناصر الفنية الأساسية والمتمثلة في: الأحداث والشخصية والحبكة والزمان والمكان، والسرد، والفكرة.

1- الأحداث: الحديث أو الفعل القصصي، وهو مجموعة الأفعال والوقائع المرتبة ترتيبا سببيا، تدور حول موضوع عام، وتصور الشخصية وتكشف عن صراعها مع الشخصيات الأخرى، وتتحقق وحدة الحدث عندما يجيب القاص على أربعة أسئلة: كيف؟ وأين؟ ومتى؟ ولماذا وقع الحدث؟

والحدث هو سلسلة التغيرات التي تطرأ على سلوك الأشخاص في علاقاتهم وتفاعلاتهم مع البيئة التي يضطربون فيها، أو هو « مجموعة الوقائع الجزئية أو الأحداث ترد مرتبة متسلسلة، وقد لا نتصور وجود قصة فنية بدون حوادث مرتبطة بالشخوص أو الشخصيات »[i].

ويعرض القاص الحدث من وجهة نظر الراوي الذي يقدم لنا معلومات كلية أو جزئية، فالراوي قد يكون كلي العلم، أو محدوده، وقد يكون بصيغة الأنا (السردي)، وقد لا تتوفر القصة على راو، وإنما يعتمد الحدث على حوار الشخصيات والزمان والمكان، وما ينتج عن ذلك من صراع يطور الحدث ويدفعه إلى الأمام، أو يعتمد على الحديث الداخلي (الحوار الداخلي).

والحدث هو أساس الفعل القصصي ومحور العملية الفنية الإبداعية فيه، وقد يكون فيه محاكاة للحياة ويتحرك تدريجيا بفعل الصراع بين الشخصيات ويكون الحدث الرئيسي بمثابة المحور الذي تتخلله أحداث فرعية تشترك فيها الشخوص لتعرض الفكرة.[ii] والقصة في جوهرها رواية لسياق من الأحداث والوقائع التي تمر بها الشخوص.

2- الشخصيات: للشخصية أهمية مركزية في القصة، ويختارها الكاتب من الحياة عادة، ويحرص على عرضها واضحة في الأبعاد الآتية:

أ- البعد الجسمي: ويتمثل في صفات الجسم.

ب- البعد الاجتماعي: ويتمثل في انتماء الشخصية إلى طبقة اجتماعية وفي نوع العمل الذي يقوم به وثقافته ونشاطه وكل ظروفه المؤثرة في حياته ودينه وجنسيته وهواياته.

ج- البعد النفسي: ويكون في الاستعداد والسلوك.[iii] والحدث ليس منفصلا بأي حال من الأحوال عن الشخصية، لأنه تصوير لها وهي تعمل عملا متكاملا يتمتع بالوحدة. ويمكننا أن نميز بين نوعين من الشخصية بناء على بنية الشخصية نفسها وهما:

*** الشخصية الجامدة:** وتسمى أيضا الشخصية المسطحة أو الجاهزة، وهي التي لا يحدث تغيير على بنيتها الأخلاقية أو النفسية أو الإيديولوجية في أثناء القصة، وتبقى تصرفاتها ذات طابع واحد لا تتغير.

*** الشخصية النامية:** وهي التي تتكشف لنا تدريجيا وتتطور بتطور الأحداث في القصة، ونتيجة لتفاعلها المستمر مع هذه الأحداث، وقد يكون هذا التفاعل ظاهرا أو خفيا، ينتهي بالغلبة أو الإخفاق، إلا أنه يترك أثره على تركيب الشخصية الداخلي في كل الأحوال.[iv]

3- البيئة الزمكانية:

بما أن القصة تصور أشخاصا أثناء قيامهم بأفعال، فإن ذلك يكون ضمن إطار مكاني وزماني، وبالتالي فهما عنصران أساسيان مرتبطان ببعضهما البعض، لدرجة أنهما يدرسان تحت سمى واحد هو "الزمكانية" في الأدب.

أ- البيئة المكانية: وهي الطبيعة الجغرافية التي تجري فيها الأحداث، أو المجتمع والمحيط وما فيه من ظروف وأحداث تؤثر في الشخصيات (الريف، المدينة، القصر، السفينة...)[v] ، ويكون المكان غالبا متحكما في حركة القصة وفاعلا فيها، فهو يساهم في إظهار مشاعر الشخوص من خلال إيراد ما تتأملها أو تحلم بها من أماكن.

أي إن حضور المكان في هذه الخالة هو معاضد لاستبطان الشخصية، ومساهم بسماتها وإيحاءاتها في تقدم العمل، أو في التعبير عن أحاسيس الشخصيات ورؤاها فيبدو وكأنه وسيلة لتحقيق غاية ما لدى القاص، ليقدم جملة من الآراء الفكرية والإنسانية المرتبطة بالمجتمع الإنساني وشرائحه، منطلقا من رؤية وموقف ثابت لديه.[vi]

وقد يأتي المكان «مشاركا في الفعل القصصي على نحو من الأنحاء، عندما يكون هذا المكان هو نفسه القوة المضادة، مثل القصة التي يقوم فيها الحدث على الصراع بين البطل والغرق في البحر»[vii]، لذا فإن أول ما يطلب من القاص، سواء استمد موضوعاته من التجارب العادية في الحياة أم تعدى نطاق المألوف إلى عوالم الخيال والخوارق أن تتحرك شخوصه على صفحات القصة، حركة الأحياء الذين نعرفهم أو نعلم بوجودهم، ويجب أن يحافظا على مثل هذه الحركة طوال القصة، ولأن يظلوا أحياء في ذاكرة القارئ/ الناقد.

وهذه الحركة لا تتم إلا في حيزها الطبيعي الذي يقع فيه الحدث، وهذا الحيز هو المكان الذي تجتمع فيه العوامل والقوى التي تحيط بالشخصيات، وتؤثر في تصرفاتهم في الحياة، فالشخصيات بحاجة إلى مكان تتحرك فيه والزمن يحتاج إلى مكان يحل فيه، والأحداث لا تحدث في الفرا غ، كل ذلك يحتاج إلى إطار يجمعها ليتم تفاعلها بإيجابية لتكوين البناء القصصي، والمكان هو ذلك الإطار.[viii] والأماكن في الاستخدام القصصي نمطان، الأماكن المغلقة كالبيت، والأماكن المفتوحة كالحديقة، ويستعين الكاتب في رسم بيئته المكانية بالوسائل نفسها التي يستعين بها في سرد الحوادث، ووصف الشخوص.

ب- البيئة الزمانية: وهي المرحلة التاريخية التي تصورها الأحداث، وترتبط ارتباطا عضويا بالعنصر المكاني وبالحدث، والزمن في القصة هو «زمن تخييلي يختلف عن زمن الوقائع في الحياة، فالزمن في واقع الحياة يحمل أحداثا متعددة في الوقت نفسه، بينما في القصة هو أحادي ينمو بالكلام على التوالي، ولكن القاص يوهم بأن هذا الزمن هو زمن واقعي بالرجوع إلى الوراء عن طريق التذكر أو التداعي، ليوهم هذا الرجوع إلى الوراء هو الزمن الماضي، وأن زمن القص هو الزمن الحاضر.»[ix]

ولقد جاء الاهتمام بدراسة زمن القصة من كونه يصنع الفهم الذهني للحدث القصصي النسبي بكل ظروفه، فهو الأساس الذي ينطلق منه الإدراك الذهني لحالات الشخوص النفسية. والزمان هو العنصر الفعال في اغناء القصة بالحركة والحيوية والنشاط، بوصفها عملا فنيا متكاملا، فالقاص لابد له من قراءة الحدث ومتابعة تطوره واتصاله وانفصاله وتأخره عن الشخصية، وتسجيله بكل وقائعه[x]، والزمن ضابط الفعل وبه يتم، وعلى نبضاته يسجل الحدث وقائعه، فلا وجود لنص قصصي دون زمن ولا سير للأحداث وشخصياتها دون خط زمني تسير عليه.

4- الحبكة: ويعرفها محمد يوسف نجم بأنها «سلسلة الحوادث التي تجري في القصة، وقد تكون مرتبطة عادة، والمؤلف لا يرى ارتباطها بالسببية شرط برابط السببية»[xi]، أما محفوظ كحوال فيعرفها بأنها «التصميم العام لأحداث القصة وشخصياتها المناسبة لها، ثم وضعها في نسيج فني انطلاقا من المقدمة والعرض والخاتمة... أو هي ترتيب الحوادث، وسردها، وتطويرها حتى النهاية.»[xii]

والحبكة لا تنفصل عن الشخصيات إلا فصلا مصطنعا مؤقتا، وذلك لتسهيل الدراسة والنقد، ومعيار الحبكة الممتازة هو وحدتها، ويعد «التحفيز هو أصغر وحدة في الحبكة، ويعني معنى التعبير... ومنه الإيهام بالواقع في القصة... أي أن يكون الأدب شبيها بالحياة... فالبتحفيز نرفض أن تظل القصة غريبة عنا وخارج أطرنا المرجعية، بل تصر على تطبيعها لنا»[xiii].

وهناك نوعان من التحفيز، مقيدة لا تستقيم القصة إلا بها، ومطلقة (حرة) لا تكون جوهرية في القصة وهناك ارتباط بينهما يؤذي إلى جذب المتلقي وشد انتباهه، بمعنى آخر إن الحبكة تجعل الحدث وكأنه يتطور تطورا داخليا مقنعا يؤدي إلى نتيجة في القصة، سواء كان الصراع بدنيا أو وجدانيا بين الشخصيات.

5- لغة القصة: تعد اللغة الوسيلة الوحيدة التي يعبر بها الأدب عن نفسه، فكل ما يجري في القصة، وكل عناصر القصة البنائية من أشخاص وحوادث وزمان ومكان، وكل ما يوازي هذه من حبكة، وما تتضمنه من مغزى إنما يتم نظمه في جمل وفقرات بواسطة اللغة.

وقد يستخدم القاص تقنيات متعددة في آن واحد، ولذلك تكون لغته مركبة من وصف وحوار وسرد وتداعي وحوار داخلي أو استرجاع أو تيار الوعي أو الحلم... الخ، ومن هنا يعبر عن اللغة القصصية عادة

بمصطلح النسيج[xiv]، وعلى وجود هذا النسيج اللغوي قي فن القصة لابد أن يعرض القاص الأحداث بلغة وأسلوب يتسمان بالخفة والسهولة والوضوح وملاءمة المعاني.

6- النهاية: وهي الخاتمة التي تنتهي بها أحداث القصة وتصنعها شخوصها، وتمثل النهاية قمة تأزم الأحداث وتشابكها قبل الوصول إلى الحل، وليس من الضروري أن يكون لكل عقدة حل، فقد تكون:

أ- النهاية مفتوحة: وتتوقف الأحداث في القصة ذات النهاية المفتوحة دون انتهاء العقدة كاملة أو بعض ما يحلها، فيترك للقارئ استنباط الحل المناسب أو تكون في قصة أخرى، نحو ريح الجنوب "نهايتها" نهاية الأمس".

ب- النهاية المغلقة: وتتوقف أحداث القصة في تلك النهاية تامة ولا يترك للمتلقي فرصة لوضع حل يراه مناسبا[xv]. وتعد النهاية أو لحظة التنوير من العناصر الأساسية في البناء القصصي، لأنها تمثل الغاية التي كان الجهد المقدم كله يتجه نحوها، أضف إلى هذا أنها تجعل مغزى القصة كاملا وجليا ومقنعا، وتعطي الإحساس به.

وأما المغزى فهو «التجربة الشعورية، أو المشكلة الحيوية التي يطرحها الكاتب ويريد ايصالها إلى القراء»[xvi] والمغزى جزء لا ينفصل عن بقية العناصر الأخرى، لأنه جزء من الشخوص والحدث والبيئة والنسيج، والقاص لا يصور الحدث من أجل الحدث نفسه، بل يصوره بتلك الطريقة الخاصة لأنه يحتوي على مغزى يقصده.

وكل قصة لها هدفها الخاص، وذلك حين رؤيتها الحياتية بطريقتها الجمالية الخاصة التي يشترك فيها معها أي جنس أدبي آخر، وهدفها النهائي أن تضيف شيئا إلى فهمنا للحياة، أو تجعلنا نستنبط مواقف جديدة من هذه الرؤية الجدية التي تقدمها، وهذا هو مغزى القصة وهدفها[xvii]. يضاف إلى العناصر السابقة عنصر الصراع، وإيقاع الزمن (تسلسل الزمن) وإيقاع المكان، وإيقاع الأحداث... وهي عناصر تأتي تباعا للعناصر السابقة عندما يقوم القاص بعملية التأليف والاختيار.